لسان الدين بن الخطيب وأدب الرحلة

إعـداد

د.محمد محمود الخزعلي

قسم اللغة العربية – جامعة اليرموك

اربد – الأردن

ملخص البحث

لقد أتاحت الظروف العلمية والسياسية للسان الدين بن الخطيب أن يطوف أكثر من مــرة في أنحاء مملكة غرناطة والمغرب الأقصى. وقد سجل في كتبه ورسائله مشاهداته في أربع رحلات هي:

١. خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف.
٢. مفاخرات مالقة وسلا.
٣. معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار.
٤. رحلته التي دونها في كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.

وقد كان ابن الخطيب حريصاً على نقل مشاهداته بدقة وأمانة كما نص على ذلك، ســواء في ذلك ما نقله من وصف لطبيعة الأمكنة وخيراتها، أو ما نقله عن طبائع الناس وأخلاقهم بعامة أو مــا قاله عن العلماء الذين التقاهم بخاصة.

وقد أخذت هذه الرسائل شكل المقامات خاصة في الرسالة الثالثة؛ حيث نجد مجلــسين لكــل منهما بطل وراو مثلما نجده في المقامات المعروفة من بطل وراو ومحسنات بديعية. وسيقوم بحثي هــذا بدراسة مضامين هذه الرسائل وما فيها من أبعاد تاريخية واقتصادية واجتماعية، وكــذلك ســيتوقف البحث عند أسلوب هذه الرسائل في التعبير.

بسم الله الرحمن الرحيم

لسان الدين بن الخطيب

لسان الدين بن الخطيب أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني (٧١٣-٧٧٦هـ، ١٣١٣-١٣٧٤م)، وزير ملوك بني الأحمر في غرناطة، شخصية موسوعية؛ فهو مؤرخ معروف، وطبيب وكاتب مترسل، وشاعر فحل، ترك العديد من الأعمال التي جعلته في مصاف أعظم من أنجبتهم الحضارة العربية الإسلامية. وكان للظروف العلمية والعملية والسياسية التي تقلب فيها[١] أو تقلبت عليه، دور في تنقله في أرجاء مملكة غرناطة، وبلاد المغرب الأقصى. لقد تتلمذ في حياته العلمية على شيوخ تلك البلاد، في المغرب والأندلس. وعندما تولى الوزارة رافق السلطان أبا الحجاج يوسف الأول في زيارته إلى مقاطعات غرناطة الشرقية عام ٧٤٨هـ. وكذلك ذهب إلى المغرب الأقصى سفيراً لسلطان غرناطة في عامي ٧٤٩هـ، و٧٥٥ هـ. ثم ذهب إليها لاجئاً عندما نفي إليها مع سلطانه المخلوع محمد بن يوسف الغني بالله(٢) عام ٧٦٠هـ، واستمر ذلك ثلاث سنوات، عاد بعدها السلطان الغني بالله إلى ملكه في غرناطة وأعاد معه وزيره لسان الدين بن الخطيب. وخلال مدة النفي هذه لم يبق ابن الخطيب في مدينة فاس عاصمة بني مرين الذين لجأ إليهم مع سلطانه بل تنقل في أرجاء البلاد المغربية وشاهد معالمها والتقى بالعديد من علمائها والصالحين من رجالها.

وقد سجل ما شاهده أو سمعه في جميع رحلاته وزيارته، وبذلك حفظ لنا مادة غنية عن حضارة تلك المناطق وأحوالها وجغرافيتها في تلك الحقبة. ولدينا الآن أربع رسائل في هذا الشأن، هي:

١. خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف.
٢. مفاخرات مالقة وسلا.
٣. معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار.

٤. رحلته إلى جبل هنتاتة، والتي دونها في كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.وقد حقق هذه الرسائل ونشرها أحمد مختار العبادي(٣) عام ١٩٥٨.

أما الأولى فهي وصف لرحلة رافق فيها ابن الخطيب سلطان غرناطة أبا الحجاج يوسف بن نصر(٤) (٧٣٣-٧٥٥ هـ، ١٣٣٣-١٣٥٤م)، كما سلف، وذلك لتفقد الجانب الشرقي لمملكة غرناطة، تتقدمه الألوية والأعلام الحمراء ، شعار دولة بني الأحمر. وقد كانت رحلة ساد المطر معظم مراحلها منذ يوم الخروج وهو السابع عشر من محرم عام ٧٤٨هـ، إلى ما قبل يوم الوصول إلى غرناطة. وكان للمطر تأثير سلبي على مسيرهم في بعض مراحل الرحلة، فما الذي دفع السلطان إلى الخروج في ذلك الوقت الماطر؟ أما كان بإمكانه تأجيل خروجه من شهر نيسان إلى شهر حزيران، أي إلى بداية فصل الصيف مثلاً؟؟

كانت مدينة وادي آش من أوائل المدن التي وصلها الركب ليستقبلهم السكان استقبالاً رائعاً بملابسهم البيضاء، وهو الزي التقليدي لأهل الأندلس عموماً منذ أيام الأمويين. ويواصل الركب مسيرهم شرقاً مروراً ببعض المدن والحصون مثل بسطة وبرشانة حيث يشير ابن الخطيب إلى القحط الشديد الذي كانت تعاني منه تلك المناطق نتيجة إغارات الأعداء وسيول الأمطار. ويصل الجمع بيرة في أقاصي الحدود الشرقية للمملكة، حيث تقع على الحدود مع الدول المعادية مما كان يسبب القلق الدائم لسكان ذلك الثغر نتيجة إغارات الأعداء المفاجئة. ثم تعود الرحلة من طريق آخر مروراً بثغر المرية حيث أقام السلطان وصحبه فيها ثلاثة أيام، وهي أطول مدة يمكثها في مدينة أو حصن، ويبدو أنها المقصودة من الزيارة حيث أطنب المؤلف في الحديث عنها قياساً على ما قاله عن الأماكن الأخرى. وهنا يصف خروج السكان جميعاً، ومن ضمنهم الجالية المسيحية لاستقبال السلطان. ويذكر المؤلف هنا صعود السلطان إلى قلعة المرية لتفقد حصونها الدفاعية ولمشاهدة آثار من ساهموا في تأسيسها وإعلاء بنيانها ممن سبقوه، مثل خيران العامري الصقلبي والمعتصم بن صمادح، وهما من ملوك الطوائف الذين حكموا تلك المنطقة في القرن الخامس الهجري. ويغادر السلطان وصحبه المرية مروراً بمدن مثل بجّانة ومرشانة وفنيانة حتى ينتهي بهم المطاف ثانية إلى مدينة وادي آش ثم منها

إلى العاصمة غرناطة، مقر السلطان حيث وصلوها في الثامن من صفر عام ٧٤٨هـ وبذلك تكون الرحلة قد دامت حوالي عشرين يوماً "قطع الركب فيها حوالي مائتي كيلو متر، فهي على الحقيقة رحلة صغيرة في الزمان والمكان"[٥].

والثانية رسالة تقوم على المفاضلة بين مدينة مالقة الأندلسية ومدينة سلا المغربية. وعلى الرغم من أنه أقام في سلا لاجئاً أيام محنته ومنفاه في المغرب، إلا أنه يتحيّز لمدينة مالقة الغرناطية مفضلاً إياها في كل ما قامت عليه المفاضلة من وجوه مثل "المنعة والصنعة والبقعة والشّنعة والمساكن والحضارة والعمارة والآثار والنضارة"[٦]. ولكن ابن الخطيب ينص على أن المفاضلة لا تقع إلا "بين ما تشابه وتقارب وتشاكل وتناسب"[٧]، ولذلك فَضْلُ سلا يكون "على أمثالها ونظرائها من بلاد المغرب وأشكالها"[٨]. ومن هنا يمكن للقارئ أن يستنتج أنه لا يمكن لسلا أن تفضل على مالقة لأنها ليست من نظرائها ولا من أمثالها، كما يوحي بذلك كلام ابن الخطيب، وكأنما أراد المؤلف بهذا أن يبرئ نفسه من التعصب لمالقة المدينة الأندلسية.

والمنعة تتعلق بالموقع الجغرافي من الناحية العسكرية وما فيه من تحصينات، أما البقعة فتعني هنا طبيعة المكان من حيث الجمال والأنهار والجداول التي تسقي نباتاته. والصنعة تعني ما تشتهر به المدينة من صناعات مختلفة، وما يتوافر فيها من المهرة في الصنائع. ويلف الغموض المقصود بالشُّنعة، ولكن يبدو أن المؤلف قصد بها سمعة المكان وشهرته وتاريخه. وعليه يمكن للوجوه الأخرى وهي المساكن والحضارة والعمارة والآثار والنضارة أن تدخل ضمناً فيما تشتمل عليه الوجوه الأربعة الأولى من دلالات ومعانٍ. وقد توافرت كل هذه الصفات المذكورة لمالقة؛ فهي منيعة الموقع، ذات قصبة شامخة وأسوار عظيمة، وتشتهر بفخّارها الفاخر وثيابها الجميلة وفواكهها الكثيرة المتعددة الأنواع، وعمائرها الكبيرة وأسواقها العامرة، والشهرة التي طبقت الآفاق، في حين خلت سلا من كل هذه الصفات حسبما يرى المؤلف. ويرى حسين مؤنس[٩] أن هذه الرسالة أكبر قيمة من الرسالة السابقة؛ لأنها اقتصرت على بلدتين من الأندلس والمغرب وبذلك كانت أغنى مادة من الناحية الجغرافية. ولكن محمد عبدالله عنان[١٠] يرى غير هذا الرأي، إذ يرى أن حظ هذه الرسالة من الخصائص الجغرافية ضئيل

لغلبة الطابع الأدبي عليها مثل سابقتها. ونحن نستغرب أن يفضل حسين مؤنس الرسالة الثانية على الأولى لأن الثانية اقتصرت على الحديث عن مدينتين فقط. ونقول إن اقتصارها الحديث عن مدينتين فقط لم يجعلها أغنى مادة وأكبر قيمة، إذ يتوافر غنى المادة في الأولى مع تعدد المدن التي تتحدث عنها. ويبدو أن اهتمام حسين مؤنس بالناحية الجغرافية فقط جعله يرى هذا الرأي في الرسالتين مع أن فيهما جوانب أخرى عديدة يمكن للباحث تفصيل القول فيها كما سنفعل فيما بعد.

ونوافق حسين مؤنس في عده الرسالة الثالثة هي الأقرب بين هذه الرسائل إلى طريقة المقامات وأسلوبها وروحها –وسنعود لهذا الأمر في نهاية البحث– بل إنه يعدها" مقامة من الطراز الأصيل الذي نجده عنده أساطين ذلك الفن"(١١). وهي تنقسم إلى مجلسين –وهذا يقربها من معنى المقامة– لكل منهما بطل وراوية، مثلما نجد في مقامات الهمذاني والحريري. أما راوية المجلس الأول فهو رحالة أفاق ومغامر يلقى نفسه في المخاطر دون تردد، وراوية الثاني "ساحر لا يستعصي عليه محال أو يحيّره مرض أو يعجزه الجواب على سؤال"(١٢). يغطي المجلس الأول أربعاً وثلاثين مدينة من مدن مملكة غرناطة، حيث يبدأ المؤلف حديثه عن مدينة الفتح أو جبل طارق وينتهي برندة، مروراً بالعديد من المدن والحصون مثل مربلة والمنكب ووادي آش وغرناطة العاصمة. ويغطي الثاني ست عشرة مدينة أو قرية مغربية، وكان الحديث عن كل من هذه المدن والقرى أطول من الحديث عن المدن الأندلسية، بل ربما بالغ في مديح هذه الأماكن المغربية وإبراز أهميتها بحيث "تختلط معها المعاني ويغدو البلد الصغير في أهمية الكبير لكثرة الكلام وعدم تدقيق ابن الخطيب فيما يقول(١٣)فهل أراد الكاتب أن يعوض بهذا عن تحيّزه ضد مدينة سلا المغربية في رسالته الثانية؟ حيث أنه كتب رسالته هذه في مدينة سلا المغربية حيث كان يعيش لاجئاً، كما سلف. وقد تناول حديثه عن المدن والحصون والقرى في هذه الرسالة، الوجوه ذاتها التي اعتمدها في حديثه والتي بيّناها سابقاً، وهي المنعة والصنعة والبقعة والشنعة وما يتبعها.

وتتحدث الرسالة الأخيرة عن زيارة قام بها ابن الخطيب إلى جبل هنتاتة الذي ينسب إلى قبلية هنتاتة التي تسكن هناك، وهي من قبائل مصمودة البربرية. ويقع هذا الجبل النائي في منطقة جبال أطلس. تبدأ الرحلة مباشرة بالصعود إلى الجبل مما يدل على وجود جزء سابق من هذه الرحلة. ويذكر أحمد مختار العبادي(١٤) كما يذكر غيره، أنه لم يصلنا إلا الجزء الثاني من كتاب نفاضة الجراب الذي يقع في ثلاثة أو أربعة أجزاء، وهو الجزء الذي قام العبادي بتحقيقه ونشره عام ١٩٦٧ ثم يذكر العبادي(١٥) في موقع آخر انه تم العثور في مكتبة الرباط على نسخة خطية من الجزء الثالث من الكتاب.

لقد أستأذن ابن الخطيب شيخ ذلك الجبل عامراً بن محمد بن علي الهنتاتي(١٦)، في رسالة بعثها إليه يلتمس منه فيها استدعاءه إلى تلك المنطقة، ولعل هذا يشير إلى سبب زيارته لهذه المنطقة، مع أنه كان مقيماً في كنف سلطان المرينيين في فاس. ويبدو أنه شعر بالضيق الشديد جرّاء الفتن والمخاوف التي كانت تسيطر عليه بعد فقده مكانته في الأندلس. فجاء هنا يطلب الأمن والراحة، وربما للاستعداد ثانية لتحقيق أمله بالعودة إلى الأندلس؛ فقد جاء هنا إلى المكان الذي انطلقت منه الهداية، كما يقول، أي انطلق منه الفتح إلى الأندلس، ومن هنا يكون مجيئه إلى هذا المكان أملاً بالانطلاق ثانية إلى غرناطة، حيث يصرح قائلاً: "ولم يكن همي، أبقاك الله ... إلا زيارتك في جبلك الذي يعصم من الطوفان ويواصل أمنه من بين النوم والأجفان، وأن أرى الأفق الذي طلعت منه الهداية، وكانت إليه العودة ومنه البداية"(١٧). وفوق هذا، فقد دفن في هذا الجبل سلطان بني مرين أبو الحسن علي بن عثمان المريني(١٨)، بعدما عانى معاناة شديدة جرّاء الهزيمة الكبيرة في الأندلس، ثم قيام ابنه فارس(١٩) عليه، وبذلك تكون زيارته لمقام أبي الحسن دافعاً آخر، وإن ثانوياً، لزيارة ذلك الجبل. وقد وصف الكاتب بدقة وتفصيل معالم الجبل وطريق الصعود إليه، كما وصف مظاهر الكرم الذي لقيه هناك والأطعمة والهدايا التي قدمت إليه، وهو ما سنتحدث عنه في موقع آخر. ويذكر الكاتب كذلك زيارته لقبر أبي الحسن المريني ومسجد المهدي بن تومرت(٢٠) وضريحه. ويواصل رحلته إلى مدينة أغمات حيث يتحدث عنها أكثر من المدن الأخرى التي سيزورها، ويذكر زيارته لقبر الملك الشاعر

المعتمد بن عباد(٢١) ومدحه بقصيدة شعرية. ثم يصف عمائر ومعالم مدينة أغمات، ليغادر بعد ذلك إلى مراكش ثم أسفى ودوكالة وأزمور واصفاً ما فيها من مساجد ومدارس ومكتبات وآثار، إضافة إلى من التقاهم من علماء وشيوخ. وأخيراً يصل إلى مدينة سلا على ساحل المحيط الأطلسي حيث استقر به المقام في ضاحيتها المعروفة باسم شالة.

وهكذا كانت هذه الرسائل مصدراً ثراً من النواحي الجغرافية والتاريخية والحضارية والاقتصادية والإثنوغرافية، وذلك لأنه تحدث عن المدن التي زارها في رحلاته من الوجوه والجوانب التي ذكرناها سابقاً وهي المنعة والبقعة والصنعة والشنعة وغيرها.

الجغرافيا

لقد احتوت هذه الرحلات إشارات جغرافية كثيرة تتعلق بتحديد المكان جغرافياً، أو بطبيعة المكان، من حيث وجود الجبال أو السهول والصحارى والأنهار، وقربه أو بعده عن البحر، إضافة إلى أن إشارات تتعلق بطبيعة الطرق الموصلة إلى الأماكن من حيث وعورتها وسهولتها، إلى جانب تحديد المسافات بين الأماكن بشكل تقريبي، وإن لم يصرح بذلك، بحيث يمكن استنتاج ذلك من خلال ذكره لوقت مغادرة مكان ما ووقت الوصول إلى المكان التالي. وفوق هذا ثمة إشارات كثيرة إلى طبيعة المناخ من حيث شدة الحرارة أو اعتدالها، وطيب الهواء وكثرة الرياح وكثرة الأمطار أو قلتها، ويشمل هذا الأمر أيضاً طبيعة النباتات والحيوانات من حيث النوع والأعداد في الأماكن التي زارها.

يحدد الكاتب موقع مدينة بيرة بأنها الثغر الأقصى وأنها محل رباط، أي أنها تقع على حدود الدول المعادية، ومن هنا وقعت على سكانها مهمة الدفاع عن حدود مملكة غرناطة، مما جعل هؤلاء السكان في ترقب وخوف دائمين من إغارات الأعداء. وفي هذا إشارة تاريخية إلى طبيعة العلاقات التي كانت تربط مملكة غرناطة مع ما جاورها من الممالك المسيحية. وهي في هذا تشبه بليّش التي تقع على حدود الأعداء وتتعرض دائماً إلى إغاراتهم (ص٨٦).

أما وادي العيران فيقع في منطقة جديبة، حيث تكثر العقارب، والطريق إليه شديدة الوعورة لأنها تمر من شعب مغلق زلق يصعب السير فيه حتى على الوعول (ص ٤٠-٤١)، لذلك عاني الركب كثيراً جرّاء سيرهم الذي استغرق نهاراً كاملاً في ذلك الطريق حتى كلت ركائبهم. ولكن ما الذي أجبرهم على سلوك ذلك الطريق دون غيره؟ ولماذا وقع الاختيار على دليل غير عارف بأفضل الدروب؟ أولم يكن لدى السلطان أدلاء خبيرون بطبيعة المناطق وطرقها؟

أما المرية فتقع في سهل واسع فوّاح يصلح للصيد بسبب طبيعة المكان وكثرة الحيوانات والطيور فيه (ص ٤٢). ويكثر في وادي بجّانة الماء والأشجار والأفياء لكثرة ما فيه من الزيتون والعنب (ص ٤٧). ونلاحظ أن الركب مر من هذا الوادي فقط ولم يقيموا فيه، لذلك كان الحديث عنه موجزاً ومقتصراً على وصف المكان دون الحديث عن سكانه. وطريق مرشانة شاق يمر من وادٍ، مما يسبب لهم الكثير من المشاق التي زاد فيها هطول الأمطار في أثناء عبورهم تلك الطريق (ص ٤٨). وجمعت مالقة في موقعها المرتفع بين رمث الرمال وخصب الجبال، فهي صالحة للزراعة، وتصلح كذلك للتجارة لوقوعها على البحر الذي وفر لها أيضاً صيداً وفيراً. وتكثر في جبالها وسهولها الأشجار خاصة أشجار اللوز والتين. أما مياهها فهي عذبة لعذوبة واديها في كل الأوقات (ص ٦٠). أما سلا فهي على العكس من كل هذا؛ فهي لا تصلح للزراعة وليست إلا مراعي جمال وبلد رمال، وواديها ملح أجاج لا رياض فيه، وليس فيها من الأسماك سوى الشابل المقصور على فصل واحد (ص٦٠). هذا ما قاله المؤلف عن سلا في مفاخرات مالقة وسلا، أما في المجلس الثاني من معيار الاختيار فقد حدد موقع سلا بأنها مقابل الرباط ووصفها بأنها ذات وسامة ونضارة يسقيها واديها فيزيد في محاسنها. وفوق هذا فهي كثيرة الأسماك خاصة سمك الشابل الطري (ص ١٠٥). نلاحظ هنا أنه عدّل من تحيزه ضد سلا الذي بدأ وضحاً في المفاخرات. ومسالك بادس وعرة موحشة من الخارج، لكنها كثيرة القمح والأخشاب والفاكهة الطيبة (ص ١٠٠-١٠١).ولوقوع سبتة على البحر فقد أصبحت داراً للحامية والأسطول المرهوب بسبب الحروب العديدة. وهنا إشارة تاريخية واضحة للحروب

والغزوات العديدة بين المرينيين ونصارى إسبانيا خاصة مملكة قشتالة. وفوق هذا فإن موقعها على البحر جعلها محط قوافل العصير والكتان ووفر لها الأسماك بأنواعها المختلفة، غير أن موقعها هذا جعلها فقيرة في زراعة الحبوب (ص ١٠١-١٠٢).

ويطنب الكاتب، نسبياً، في حديثه عن غرناطة، ولا عجب في ذلك، فهي عاصمة الملك الذي إليه ينتمي. ويصف موقعها بأنه سهل واسع حجبت الجبال عنه ريح الجنوب فازدادت أمناً وصحة، وفي ذلك السهل تجري الجداول الجميلة فكثرت الجنان، أما هواؤها فهو صاف عليل (ص ٩١-٩٢). ومقابل هذا يطنب في حديثه عن فاس عاصمة المرينيين في المغرب، فيصفها بأنها كثيرة الشجر، لكنها حارة الطقس وعرة المسالك، كثيرة الزحام (ص ١١٢).

ويبدو أن الكاتب كان شديد الاهتمام بالمناخ، فقد اهتم بذكر الأمطار من حيث كثرتها أو قلتها، وبنوع الهواء من حيث طيبه أو خبثه وبدرجة الحرارة من حيث ارتفاعها واعتدالها، وهذا واضح من حديثه، مثلاً، عن جبل الفتح، والمنكب، والمرية، ووادي آش، وفنيانة، وأنفا (الدار البيضاء)، وآقر سلوين، وتازة، وأغمات، وأسفي، وهذه مجرد أمثلة.

ودقة الكاتب في وصف الطريق صعوداً إلى جبل هنتاتة شديدة عجيبة، وتشعر القارئ أن الكاتب كان يسجل ملاحظاته هذه في أثناء مسيره في تلك المسالك ولحظة رؤيته لتلك الأماكن على ذلك الجبل وما جاوره من أماكن. فهو يصف كيفية الصعود إلى الجبل من السفح بمحاذاة ضفة الوادي الملتف بشجر الحور والطرفاء والدردار، ويبين كيف أنهم كانوا في مسيرهم يضطرون لاقتحام الوادي، ذي التيار القوي، أكثر من ثلاثين مرة، وفي مسالك يعصب على الوعول سلوكها. أما طريق مزار قبر أبي الحسن المريني فكان أيضاً وعراً كثير المتزلقات يمر عبر شعاب صعبة المجاز. وللوصول إلى ذلك المزار كان عليهم أن يسيروا على ألواح من الخشب ترفع عند الضرورة، "فتنقطع عمن وراءها الآمال" (ص ١٢٤)،

العمارة والصناعة والتاريخ

أورد الكاتب في رحلاته إشارات وأوصاف عديدة لمعالم حضارية في الأماكن التي زارها كالأسوار والحصون والأبنية العامة والخاصة والمساجد، والمقامات والمزارات. كذلك وردت إشارات إلى صناعات وحرف معينة، إضافة إلى الإشارات التاريخية إلى حكام تلك الأماكن، وإلى من يسكنها من المشاهير من رجال السياسة أو العلم، أو الدين. ونبدأ حديثنا عن الأسوار التي قلما خلت مدينة مهمة منها، مما يدل على البعد الحربي والدفاعي لتلك المدن خاصة أن أكثرها بني أو جدد بناؤها بعد الفتح الإسلامي، فكان على سكانها تقع مهمة جهادية، وبذلك كان السور ضرورة وجزءاً أساسياً من المدينة. وقد ظلت الدول الإسلامية المختلفة تجدد أو ترمم أسوار العديد من المدن، غير أن الإهمال أصاب أسوار بعض المدن، فتطرق إليها البلى كثيراً أو قليلاً، وذلك نتيجة أن تلك المدن ، في حالات كثيرة، قد أصابها الإهمال لأسباب سياسية أو اقتصادية أو غيرها. فمالقة، مثلاً تفاخر بمنعتها بسبب أسوارها وسياجها والخندق المحفور حولها، إضافة إلى أبراجها وقلاعها مما يدل على اهتمام بني الأحمر بهذه المدينة. أما سور سلا فهو حقير يحتاج إلى الإصلاح بسبب الإهمال، وهذا بالطبع يحد من منعتها أمام هجوم الأعداد وخاصة الروم الذين استباحوها في وقت قريب، وفي هذا إشارة تاريخية واضحة لإغارات النصارى الأسبان ، لا على مملكة غرناطة في الأندلس فقط وإنما على عدوة المغرب أيضاً، كما حدث سنة ٧٤١هـ (ص ٥٨).

وجبل الفتح، مثل مالقة، له سور عال يمنعه من الأعداء (ص٧٥)، وكذلك طنجة في الجهة المقابلة لجبل الفتح، فان سورها كان ما يزال بحالة جيدة (ص ١٠٣). وسور سجلماسة حصين، وكذلك جسرها، وهي من البلدان المجاورة لحدود السودان (ص١١٣). أما سور أغمات فكان من الطين الأحمر، لكن خندقها كان مندملاً (ص١٣٠) مما يدل على أنه كان قد أصابها شيء من الإهمال. وقد أصاب الانثلام والتشعيب، أي بداية البلى، سور موسى الذي وصفه الكاتب بأنه "حلق ذو شرفات وأبراج" (ص١٥٠)، وبأنه غير حصين لجهل أهل تلك

المنطقة القريبة من الصحراء بالحصون وببنائها. أما ذكوان فلا أسوار قوية تمنعها، وهي حديثة البنيان يسهل سقوطها بيد الأعداء (ص٩٥).

أما المسجد فكان جزءاً أساسياً من المدينة الإسلامية، بل أنه كان أول ما يختط عند بناء المدينة الإسلامية. وبناء المساجد والحفاظ عليها من الأمور التي يقبل المسلمون على عملها تقرباً إلى الله وطلباً لمغفرته، ولذلك كثرت المساجد في المدن الإسلامية. وظلت المحافظة عليها وتجديدها وترميمها من مهمات الحكام والمحسنين من المسلمين. ومن هنا كانت عظمة المسجد تدل على عظمة المدينة وإزدهارها، أما إذا تطرق إليه التثلم والبلى فذلك دلالة على خمول المدينة التي تحويه والدولة التي يقع فيها.

وقد جاء لسان الدين بن الخطيب في مشاهداته، على ذكر العديد من المساجد في مدن مختلفة ووصف أحوالها. فغرناطة مثلاً تزخر بمعالم الحضارة والأبنية العديدة وخاصة المساجد العتيقة (ص٩١). ووصفها بالعتيقة هنا دلالة على قدم وجودها في غرناطة وعلى إيلاء حكامها المتعاقبين الاهتمام الكبير بالمساجد، وليس دلالة على عدم تجديد هذه المساجد وإشرافها على الانهدام. أما مسجد وادي المنصور، فقد وصفه الكاتب بأنه "بادي الاستكانة، خاضع للبلى على سمو المكانة" (ص٣٩)، فهل كانت هذه دعوة لتجديده لأن المسجد لم يكن يعاني من الإهمال. أما مالقة فكانت تفاخر بمساجدها الفاخرة (ص ٦٢)، ولا ندري إذا ما كان المؤلف قد بالغ في هذا أم لا، حيث أنه قد غالى في تحيزه لمالقة ضد سلا. ولم يغادر المؤلف جبل هنتاتة إلا بعد أن زار مسجد الإمام المهدي ودار سكناه وبقايا مدرسته وسجنه، وكان قد وجده مسجداً متواضع البناء قميئ المنبر ولا تبدو على خشبه آثار الصنعة. كما أن خشبه لم يكن من الأخشاب الفاخرة كالصندل والأبنوس الحبشي مثلاً (ص١٢٦). ولعل هذا راجع إلى أن الموحدين لم يكونوا يهتمون بزخرف الحياة ورغدها، ويبدو أن دعوتهم إلى العودة إلى أصول الدين الأولى صحبتها دعوة إلى بساطة العيش ، خاصة أنهم قوم أتوا من أعماق الصحراء. ويذكر المؤلف كذلك مساجد آسفي وصلاته في مسجدها الجامع (ص١٤٨)، وكذلك يذكر زيارته إلى رباط الشيخ أبي محمد وكان من "المشاهد الحافلة والمآلف الجامعة" (ص١٤٥)،

ويذكر كيف حضر الفقهاء والطلبة والصوفية للسلام عليه وتناولهم طعام الشيخ أبي محمد من بيت المال. ومن أطرف ما ذكره المؤلف عن المساجد، حديثة عن مسجد أغمات ومئذنته، فيذكر أنه مسجد عتيق رحب، وأن مئذنته فريدة من نوعها في العالم، وذلك لأنها تأسست مربعة الشكل في البداية لكن من بنوها ظلوا ينقصون في طولها وعرضها حتى أصبحت مخروطية الشكل يحيط بها فارز خشبي ويعلوها عمود (ص١٣١). ولا شك أن لهذا الوصف قيمة كبيرة من الناحيتين التاريخية والمعمارية.

وقد وصل المؤلف في دقة وصفه لمقام أبي الحسن المريني الغاية القصوى، إذ وصفه بأنه

دار قوراء نبيهة البنية بالنسبة إلى جنسها... ساذجة ملطخة الجدران بالطين الأحمر، متقابلة الأشكال بيوتها، لاطية السقف غير مهذبة الخشب، بأعلاها غرف من جنسها، يدور بداخلها برطال مستعل على أرجل من اللبن، الحجر ملبّس بالطين، والبيت حيث متوفى السلطان مفترش بالحصباء، قد ترك فيه دائرة كالقصعة تباشر الثرى، وتمكن من تربته من يقصد شفاء المرضى وكحل العيون المرهى، إذ كان رحمه الله أخر ملوك العدل نشأة (ص١٢٥).

إن هذا الوصف يثير أموراً عديدة. إنه يذكر هندسة البناء وشكله، ومادة البناء وصنعه، إذ لم يكن بناءً فخماً ولا استخدمت المواد الثمينة في بنائه، إنه مبني من الحجر والطين والأخشاب غير المهذبة. أما أرضه فهي مفترشة بالحصى لا مبلطة بالرخام أو غيره كما قد يكون الأمر في أماكن أخرى لأناس آخرين. وفوق هذا فقد تحول المكان إلى مزار ديني يزوره من يطلب شفاء مرض ، وفي هذا إشارة تاريخية إلى تفشي الخرافات في ذلك الزمن، وهو أمر نجده في كل الأمكنة وفي كل الحقب التاريخية بين العامة بخاصة. والأهم من كل هذا أن دقة الوصف هذه تمكن من أراد إعادة بناء ذلك المبنى كما كان عهدذاك

ومن الأبنية والمرافق التي ذكرها المؤلف في مشاهداته، تلك الأبنية العامة كالمدارس والمشافي والجسور والقنوات والنواعير، إضافة إلى أبنية أخرى ذكرها المؤلف ترتبط بصناعات وحرف معينة مثل معاصر الزيت والممالح، مما يشير إلى وجود صناعات معينة تشتهر بها كل مدينة. فسلا، مثلاً "معدن القطن والكتان" (ص١٠٥)، ويختص أهل بسطة بمعالجة الزعفران

ولذلك كانت ثيابهم تتأرج بالعبير (ص٨٧)، وفي سبته صناعة الملابس الفاخرة، وهي كذلك محط قوافل العصير والكتان (ص١٠١). وفخّار تازه آية في اللطف وخفة الوزن (ص١١٤). أما مالقه ففيها صناعات الديباج المذهب والجلد والنسيج والثياب ص(٥٩).

وقد حرص ابن الخطيب في مشاهداته على ذكر المباني السكنية والقصور الخاصة في بعض المدن، فللسلطان في أغمات دور حافلة تدل على علو همة السلطان وقومه، لكن الخراب قد أصاب تلك الدور، ويبين ذلك على الأخشاب المنقوشة. فهل كان الخراب بسبب الإهمال أم بسبب تبدل السلطان نتيجة تتابع الفتن كما يقول المؤلف (ص١٣٢). أما مراكش فهي ذات قصور عرفت الحكام الأشداء ، من موحدين وغيرهم، في حكم هذه المدينة. ويذكر عنها أيضاً أن المدينة قد أصابها الخراب بسبب الفتن الكثيرة، وأن تلك المدينة، كما يقول، لو كانت من المدن الحية في ذلك الحين لكانت أولى المدن بالشرف الأعلى (ص١٠٨). ولهذه العبارة الأخيرة دلالة تاريخية كبيرة.

وفي صدد حديثه عن المساكن الخاصة والقصور، يورد المؤلف عبارة ذات دلالة تاريخية واجتماعية واقتصادية كبيرة، وذلك حين يقول في معرض المفاخرة بين مالقة وسلا، بأن ما في سلا "من قصور ودور للملك ولأهل الخدمة فان الجمهور لا نصيب له من ذلك" (ص ٦٣). تبين هذه العبارة، من بين أشياء عديدة، بعد الشقة الاجتماعية والاقتصادية بين عامة السكان والقلة الحاكمة وأتباعها، ولكنه لا يذكر ذلك عن مالقة التي، كما يذكر، تكثر فيها القصور البيض والجنان الدانية مما لا يحده الحصر، فهل يعني بذلك أن سكان مالقه من عموم الناس أفضل حالاً من سكان سلا؟ ومن القصور التي ارتبطت بتاريخ معين قصر خيران الصقلبي(٢٢) الذي استقل بالمرية عام ٤٠٣هـ، أيام هشام الثاني المؤيد(٢٣)، وكذلك قصر المعتصم بالله بن صمادح(٢٤) ١٠٤١- ١٠٩١م.

وعلى الرغم من الدلالات التاريخية المتعددة لما ذكره المؤلف من عمائر وصناعات، فانه يذكر، فوق هذا، أحياناً طرفاً من تاريخ بعض المدن، أو يذكر أحداثاً تاريخية معينة ترتبط بمدينة معينة. لقد ذكر مالقه بأنها ذات ملك في الإسلام، وأنه تقلب على ملكها وعلى سكناها

ملوك الأدارسة والصناهجة، ثم بنو نصر أي بنو الأحمر ملوك غرناطة في عهد المؤلف (ص٦٠). ومثل هذا يقوله عن سجلماسة، فهي مدينة "ذات تاريخ مجيد معروف، ودارملك قديم" (ص١١٣)، وهذا مما يدل على شهرة هذه الأماكن وهو ما سماه المؤلف بالشُّنَعَة.

الإثنوغرافيا

الإثنوغرافيا فرع من فروع علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، وهو علم وصفي، يصف أسلوب الحياة والعيش ومجموعة العادات والتقاليد والقيم والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة في مكان معين في زمان معين(٢٥).وكما يرى بعضهم(٢٦) فإن موضوع الإثنوغرافيا يتعلق بوصف طبائع البلدان، وخصال أهلها وأسلوب حياتهم، حسب المصطلحات المتداولة في كتب التراث العربي. ومن هنا كانت الأطعمة وأنواعها وطرق طهيها وتقديمها وتناولها موضوعاً من موضوعات الإثنوغرافيا. كما يدخل في موضوعاتها أساليب سلوك الناس بعضهم مع بعض من ناحية ومع الغريب عنهم من ناحية أخرى. كذلك تدخل الهدية وأنواعها وأساليب التهادي في هذا الباب. وقد كانت كتابات الرحالة المسلمين، كغيرهم من الرحالة، زاخرة بالأبعاد الإثنوغرافية، من خلال تسجيلهم لمشاهداتهم في البلدان التي زاروها. ولا يشذ لسان الدين بن الخطيب عنهم في هذا الأمر، فقد احتوت مشاهداته على أمور كثيرة تتعلق بطبائع الناس وأطعمتهم وعاداتهم في الأماكن التي زارها. ولعل من أهم ما أورده المؤلف في هذا المجال وصفه لاستقبال الناس موكب السلطان في مدنهم أثناء جولته، فقد ذكر أن الناس في العديد من المدن كانوا يخرجون زرافات ووحدانا فرسانا وراجلين، صغاراً وكباراً، وقد أخذت المدينة زينتها. وذكر أيضاً مشاركة التجار الروم في مدينة المرية في الاحتفاء بمقدم السلطان إلى مدينتهم، مما يشير إلى وجود علاقات سلمية بين غرناطة وغيرها من الدول المسيحية في ذلك الوقت الأمر الذي أدى إلى ازدهار العلاقات التجارية، كما يشير هذا إلى وجود التسامح الديني في تلك المدينة بين الأديان المختلفة وهو ما اشتهرت به الأندلس على طول تاريخها. ومن المشاهد المهمة التي أوردها المؤلف، في غير موضع، خروج النساء بكل زينتهن ومشاركتهن الرجال في

استقبال الموكب السلطاني، مما يشير أيضاً إلى وجود قسط كبير من الحرية الاجتماعية التي نالتها المرأة في الأندلس. ومن هنا أشار المؤلف، غير مرة أيضاً، إلى أن نساء تلك المدن كن على جانب كبير من الجمال بحيث يشغلن الفتى عن شؤونه، ولعل هذا راجع إلى اختلاط الأجناس وتوالدها في الأندلس (انظر مثلاً، الصفحات ٢٩، ٣١، ٣٥، ٤٣، ٥٠).

وقد رصد المؤلف في غير موقع أشكال السكان وأجناسهم ولغاتهم. فهو يذكر عن أهل سجلماسه التي تجاور حدود السودان بأنهم عمش العيون قرع الرؤوس (ص١١٤). وسكان فاس، عاصمة المرينيين، "خليط من ولد سام وحام بالتحام ووئام" (ص١١١)، لذلك كانت ألسنة أهلها باللغات المختلفة لاحنة. ويساهم البربر في تشكيلة سكان مالقه حيث يتضح ذلك من لغة الناس وأفعالهم (ص٦٢)، وكذلك كان سكان أصيلا من البربر (ص١٠٤)، ومثلها أزمور فقد كان لسان أهلها بربرياً والبخل يسود طباعهم. وقد سجل المؤلف وجود ظاهرة البخل في أكثر من مكان في مشاهداته، فيورد ملحة طريفة عن أهل قنتوريا الذين أتوا يزفون دجاجة قبل ذبحها إكراماً لابن الخطيب، وقد تباروا في مدحها وطلب النوال بسببها (ص٣٧). وكذلك وصف أهل قرمطة حيث يغل البخل أيديهم حتى في أوقات الشدة ويتشاجرون لأقل الأمور أهمية (٩٥). وكذلك كان أهل سبتة، فهم أهل بخل واقتصاد في النفقة، أما فاس فلا "يطرق الضعيف حماهم، ولا يعرف اسمهم ولا مسماهم" (ص١١٣).

وفيما يتعلق بطبائع الناس وأخلاقهم يذكر المؤلف، أيضاً أن سكان العديد من المدن يتصفون بشراسة الخلق والإسراع إلى الشجار، وهو ما يذكر عن أهل تازة (ص ١١٤)، وأهل بلّيش الذين كانت قلوبهم أقسى من الحجر (ص٧٩)، وأهل بيرة الذين كان يكثر عندهم الشجار والزهد في الصلاة وسوء معاملة الأسرى (ص٨٤-٨٥). ويذكر الكاتب أن أهل أنتقيره" أولو شرور وغرور، وسلاح مشهور، ولا تقبل غريباً (ص٩٥). وثمة ذكر كذلك، في المشاهدات، لشيوع ظاهرة المجون والفسق والسفه عند سكان بعض المدن، كما يروى عن أهل برشانة (ص٨٥)، وأندرش التي كثرت فيها استباحة المحارم وأموال الغير، لبطالة أبناء المترفين، ولذلك كثر فيها الفساد وصار ساكنها يشكو من سطوة القوي (ص٨٨).

أما النوك والحمق والغفلة فقد ذكر ابن الخطيب أنها تنسب إلى أهل أغمات الذين "تعمر بمجلسهم الأسمار وتتجمل بنوادر حكاياتهم الأخبار" (ص١٣١)، ويذكر المؤلف عنهم أنهم أستأذنوا ملك المغرب عند زيارته لمدينتهم وإعجابه بمئذنة مسجد بلدتهم الفريدة من نوعها، في نقلها إلى بلده على سبيل الهدية ليجعلوها" تحفة قدومه، وطرفة وفادتة (ص١٣١).

ولعل من أهم الموضوعات التي يمكن أن ننهي بها بحثنا هذا ذكر ابن الخطيب للطعام وخاصة في أثناء زيارته لجبل هنتاتة وحلوله ضيفاً على عبد العزيز بن محمد الهنتاتي، أخي عامر بن محمد الهنتاتي شيخ هنتاتة. ومن المعروف أن الطعام ليس مجرد وسيلة للتغذية والإبقاء على الحياة، بل إن الطعام وطرق طهيه وتقديمه وتناوله ترتبط بالبيئة والاقتصاد والدين والعادات والتقاليد، ونادراً ما أغفل الرحالة المسلمون، أو غير المسلمين، الحديث عن الطعام، فيما سجلوا من مشاهدات، وبذلك يمكن أن تكون ملاحظاتهم مصدراً غنياً للمعلومات عن أوجه الحياة المختلفة[٢٧]. وهذا ما نلاحظه فيما سجله ابن الخطيب في هذا الصدد. فبعد وصفه للخيمة الكبيرة ذات النقوش البديعة والصناعة الفاخرة، المؤثثة بلحف الحرير ومساند الوشي والجلد المزعفر، وهي الخيمة التي استضاف بها عبد العزيز الهنتاتي المؤلف، يصف ابن الخطيب بدقة وتفصيل كبير ما قدم من طعام من حيث أنواعه المختلفة والأواني التي قدم بها فكانت قصاع الثريد الكبيرة، المغمورة بالسمن وتعلوها الحملان، في آنية مذهبة فيها كل لذيذ الطعم ومختلف الشكل. لقد قدم لهم اللحم والمسك والخمر، ثم قدم الدجاج والسمك. ثم جاءهم آنية نحاسية فيها طعام خاص من الطير والكبّاب واللقالق. ومن ثم أحضرت أصناف الحلوى والفاكهة. وكان يقوم على خدمتهم خدّام "أخذهم الآداب وهذبتهم الدربة، فخفت منهم الحركة، وسكنت الأصوات" (ص١٢٣). ثم يصف مجلس السمر حيث جلسوا على ضوء الشموع المتلألئة فوق منصات نحاسية، حيث قدم لهم الطعام مرة أخرى وكذلك توالت أصناف الحلوى.

إن وصف المؤلف لمائدة عبدالعزيز الهنتاتي، الذي أوجزناه أعلاه، له قيمة كبيرة من النواحي التاريخية والاجتماعية والاقتصادية، خاصة للمهتمين بدراسة الأطعمة وتاريخها وأبعادها

الاجتماعية، كما أنه يعبر عن البذخ الذي كان يعم في بلاط السلاطين ومجالس الرؤساء والزعماء. ولا نشك في أن هذا كان مقصوراً على هذه الفئة أو الطبقة، إذ لا يمكن أن يكون ميسوراً لعامة الناس. ولا شك أن مثل هذه الأبهة والبذخ كان يباعد في أحيان كثيرة بين الحكام والمحكومين.

ملامح فنية

لقد أورد المؤلف الرسائل الثلاث الأولى في باب المقامات، في كتابه ريحانة الكتاب(٢٨)، وهي تشبه في أسلوبها أسلوب المقامات من حيث شيوع السجع والمحسنات البديعية فيها، مما جعل حسين مؤنس- كما ألمحنا سابقا- يقول بأن طغيان الجانب الأدبي فيها جعل القيمة الجغرافية لها ضحلة. والمقصود بالأدب عنده هو شيوع المحسنات البديعية التي يرى أن الكاتب كان يهتم بإيرادها أكثر من اهتمامه بوصف المكان وصفاً دقيقاً(٢٩). ومع ذلك فإن حسين مؤنس يعبر عن إعجابه الشديد ببعض مقامات لسان الدين فهو يقول إن لسان الدين لم يدع ضربا من ضروب التأليف إلا تناوله، فكتب مقامة الرحلة ومقامة المفاخرة ومقامة السؤال والجواب ومقامة القصة، إلا أنه يرى أن هذه المقامات الثلاث كانت أحسن أنواع المقامات وأقربها إلى نفوس القراء في تلك العصور(٣٠).

لقد اختلط النثر بالشعر في هذه المقامات أو الرسائل مثلما نجده في مقامات البديع أو الحريري مثلا، فقلما نجد صفحة من صفحات خطرة الطيف أو معيار الاختيار أو رحلته إلى جبل هنتاتة تخلو من شعر لابن الخطيب أو لغيره يتمثله أو يستشهد به عند وصف مكان أو التعبير عن حال. وهو متابع هنا، كغيره من مقاميي الأندلس، "لإخوانهم المشارقة في تضمين الشعر العربي مقاماتهم ليزينوها به ويضعوه في المكان المناسب فيها فدل ذلك على وعيهم لتراث أمتهم"(٣١).

وقد خرجت المقامتان الأولى والثانية عن النمط المعتاد في المقامة التقليدية كما جاءت عند الهمذاني والحريري وغيرهما، وهو وجود البطل والراوية إلى جانب اتخاذ الكدية موضوعا

لها. لقد كانتا أقرب إلى أسلوب الرسائل إذ هي الأخرى شاعت فيها المحسنات البديعية. ولعل هذا راجع إلى تطور فن المقامة في الشرق والغرب لتصبح كلمة مقامة تدل على" كل تمرين بلاغي في نثر مسجوع مطعم بالشعر أولا، ومستوحى من أي باعث"(٣٢)، وبذلك انتهى الأمر إلى الخلط بين المقامة والرسالة بمعناها الواسع، حيث انمحت من الأولى معالمها التقليدية عدا السجع الذي ظل كذلك حقيقة جوهرية في الرسالة الأدبية، وبذلك أصبحت المقامة مرادفة للرسالة. ويؤكد هذا إحسان عباس؛ إذ يرى أن كثيراً من المقامات الأندلسية أصبح وصفاً للرحلة والتنقل في بلاد الأندلس والمغرب، وفقدت كذلك العقدة والشخصيتين الخياليتين فيها، وصارت تروى على لسان كاتبها، وفوق هذا فقد فقدت العناصر الدرامية واكتفى كتابها بالمقامة والمقامتين ولم يتبعوا الهمذاني والحريري في أن تكون كتابا جامعا(٣٣).

أما الرسالة الثالثة فهي تشبه المقامات في أكثر من وجه، فهناك الراوي والبطل التقليديان، كما أن الرواي مكدي كما يظهر في نهاية النص، إضافة إلى التزامها بالسجع والمحسنات البديعية. إنها تنقسم إلى مجلسين لكل منهما بطل، ولكل منهما بداية ونهاية، "وكأننا أمام قصتين منفصلتين مع شيء من التجوز"(٣٤)، إلا أنه لم يبتكر لأبطال هذه المقامة أسماء بل إن فيها جاء نكرة. ونعلم أن بطل المجلس الأول رحالة جاب الآفاق، ومغامر لا يتردد في إلقاء نفسه في المخاطر، كما سبقت الإشارة إليه. والمجلس الثاني يدور أيضا في إطار قصصي(٣٥)؛ فيخبرنا الراوي أنه التقى في بعض أسواق الغبار بكهل هو رجل ساحر وطبيب موسوعي المعرفة لا يستعصي عليه شيء، يسأل فيجيب، فلا يعجزه الجواب.أما الرسالة الأخيرة فقد ابتعدت كثيرا عن السمات التقليدية للمقامة؛ فقد كتبت بأسلوب مترسل يخلو إلى حد بعيد من السجع، وكذلك لا نجد لها راوية ولا بطلا، كما أن موضوعها الرحلة ووصف الأماكن، مثل الرسائل الثلاث الأخرى، وليس الكدية.

الهوامش والتعليقات

١- لا يقع في نطاق هذا البحث تقديم سرد مفصل لحياة لسان الدين بن الخطيب ولأعماله، ولعل دراسة محمد عبدالله عنان من أفضل الدراسات التي تقدم سرداً مفصلاً لحياة لسان الدين ولأعماله التاريخية والأدبية. انظر محمد عبدالله عنان، لسان الدين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٨.

٢- محمد بن يوسف أبي الحجاج بن اسماعيل، ثامن ملوك دولة بني نصر بن الأحمر في الأندلس. ولي بعد وفاة أبيه سنة ٧٥٥ه، جدد رسوم الوزارة لوزيره لسان الدين بن الخطيب.

٣- لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، جامعة الأسكندرية، ١٩٥٨، وقد أعيد طبع هذا الكتاب عام ١٩٨٣، وهي الطبعة التي اعتمدناها في هذه الدراسة ونحيل إلى صفحاتها في متن الدراسة. وقد صدرت هذه الرسائل في طبعة ثالثة للمحقق نفسه، عن دار السويدي للنشر والتوزيع في أبو ظبي عام ٢٠٠٣ بعنوان خطرة الطيف: رحلات في المغرب والأندلس، وهي لا تختلف في شيء عن طبعة جامعة الإسكندرية.

٤- أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل بن نصر ٧١٨ه-٧٥٥ه، سابع ملوك بني نصر بن الأحمر في الأندلس. بويع في غرناطة بعد مقتل أخيه محمد سنة ٧٣٣ه. قاتل الإسبان وثبت لهم مدة. في أيامه كانت وقعة البحر بأسطول الروم، ثم الوقيعة على المسلمين بظاهر طريف. توفي مقتولا وهو يصلي في المسجد.

٥- حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، الطبعة الثانية، المنظمة العربية للتربية والفنون والثقافة والعلوم، والقاهرة، ١٩٨٦، ص ٥٧٣.

٦- لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات...، ص ٥٧.

٧- السابق.

٨- السابق، ص ٦٦.

٩- حسين مؤنس، ص ٥٧٥.

١٠- محمد عبدالله عنان، ص ٢٢٧.

١١- حسين مؤنس، ص ٥٨٠.

١٢- السابق، ص ٥٨١.

١٣- السابق، ٥٨٥.

١٢- لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات ...، ص ١٤-١٨، وانظر أيضاً: محمد عبدالله عنان، ص ٢٢٥.

١٤- أحمد مختار العبادي، لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخية، مجلة عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الثاني، الكويت، ١٩٨٥، ص ٤٩.

١٥- أحمد مختار العبادي، مشاهدات ...، ص ١٢١.

١٦- عامر بن محمد بن علي المكنى بأبي ثابت، شيخ هنتاتة من قبائل مصمودة، تولى أحكام الشرطة بتونس في عهد السلطان أبي الحسن المريني ثم ولي الجباية لأبي عنان فارس فكفاه مؤنتها.

١٧- لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات...،ص ١٢١.

١٨- أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني ٧٣١-٧٤٩ه.عاشر ملوك بني مرين بفاس. كان مجاهدا طموحا، وحد المغرب تحت سلطانه، ثم اتجه بأساطيله للسيطرة على مضيق جبل طارق، إلا أن جيوش الإسبان ومن انضم إليها من الأوربيين المتطوعين انتصرت عليه في وقعة طريف.م\ثار عليه ابنه فارس ابو عنان، ومات حزينا شهيدا عند بني عامر في جبل هنتاتة.

١٩- هو فارس المكنى بأبي عنان الملقب بالمتوكل على الله. ولد عام ٧٢٩ه بفاس، وثار على أبيه أبي الحسن، بتلمسان عام ٧٤٩ه واستولى على المغرب الأقصى. كان مغرما بالعلوم والبناء، وتوفي عام ٧٥٩ه وقيل مات قتيلا.

٢٠- أبو عبد الله محمد بن تومرت مهدي الموحدين ومؤسس دولتهم بالمغرب عام ٥١٤ه، توفي عام ٥٢٢ه.

٢١- محمد بن عباد بن محمد بن اسماعيل اللخمي الملقب بالمعتمد. صاحب إشبيلية وقرطبة. ولد في باجة وولي بعد وفاة أبيه عام ٤٧٠ه، اتسع سلطانه بعد أن امتد إلى قرطبة وما حولها.وهو شعر رقيق ومجاهد صبور، قضى المرابطون على حكمه في الأندلس واقتاده إلى أغمات في المغرب ليمضي بقية حياته هناك يعاني عذاب السجن كما عانت أسرته عذاب الفقر.

٢٢- خيران الصقلبي العامري. كان مملوكا للمنصور ابن أبي عامر ثم تدرج في الرقي حتى صار رئيسا لحزب الصقالبة في أواخر أيام بني أمية في الأندلس. استقل بولاية المرية عام ٤٨٣ه وصار يدعى بالخليفة وبالفتى الكبير.

٢٣- هشام بن محمد بن عبد الملك المعروف بهشام المؤيد، آخر ملوك بني أمية في الأندلس، حكم بعد وفاة المستكفي عام ٤١٨ه ولم يستطع قمع الفتن الكثيرة . ثار عليه الجند وأخرجوه من قصره عام ٤٢٢ه ولحق بابن هود صاحب تطيلة وسرقسطة ولاردة وطرطوشة. وانقرضت به الدولة الأموية في الأندلس.

٢٤- المعتصم بالله بن محمد بن صمادح ١٠٤١م-١٠٩١م، أحد ملوك بني صمادح في المرية. كان محبا للعلوم والآداب، غزا المرابطون مملكته وكان على فراش الموت فقال عبارته المشهورة: لا إله إلا الله، نغص علينا كل شيء حتى الموت.

٢٥- مجيد حميد عارف، الإثنوغرافيا والأقاليم الحضارية، وزارة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٤، ص ٩، وانظر كذلك حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٩، ص ٤٩.

٢٦- حسين محمد فهيم، ص ٥٠.

٢٧- السابق، ص ١٤٣.

٢٨- لسان الدين بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان، ج٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨١، ص٢٤٦.

٢٩- حسين مؤنس، ص٥٧١.

٣٠- السابق، ص ٥٧٢.

٣١- قصي عدنان الحسيني، فن المقامات بالأندلس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩، ص ١٢٣.

٣٢- فرناندو دي لجرانخا، مقامات ورسائل أندلسية، ترجمة عبد اللطيف عبد العليم، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٣.

٣٣- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين، الطبعة الخامسة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨،ص ٣٠٨، وانظر كذلك يوسف نور عوض، فن المقامات بين المشرق والمغرب، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٦، ص ٣٢١-٣٢٣.

٣٤- علي الغريب الشناوي، فن القص في النثر الأندلسي، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٣٧٨.

٣٥- السابق، ص ٣٧٩.

المصادر والمراجع

١. الحسيني، قصي عدنان، فن المقامات بالأندلس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمـــان، ١٩٩٩.
٢. ابن الخطيب، لسان الدين، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأنـــدلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، جامعة الإسكندرية، ط٢، ١٩٨٣.
٣. ــــــــــــــــــــ، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج٢، تحقيق محمد عبد الله عنـــان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨١.
٤. دي لاجرانخا، فرناندو، مقامات ورسائل أندلسية، ترجمة عبد اللطيف عبد العليم، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٥.
٥. الشناوي، علي الغريب، فن القصص في النثر الأندلسي
٦. عارف، مجيد حميد. الإثنوغرافيا والأقاليم الحضارية، وزارة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٤.
٧. العبادي، أحمد مختار، "لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخية" والأندلس، مجلة عالم الفكر، م.١٦،ع.٢،الكويت، ١٩٨٥.
٨. عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين، الطبعة الخامـــسة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨.
٩. عنان، محمد عبدالله، لسان الدين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٨.
١٠. عوض، يوسف نور، فن المقامات بين المشرق والمغرب، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٦.
١١. فهيم، حسين محمد، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافـــة والفنـــون والآداب، الكويـــت ١٩٨٩.
١٢. مؤنس، حسين، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، الطبعة الثانية، المنظمة العربية للتربية والفنون والثقافة والعلوم، والقاهرة، ١٩٨٦.